حتى لا تتعب نفسك ، حتى تواجه مشاكل الحياة بنفسٍ صافية راضية عنك وعن الناس .

ثم يقول تعالى : ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون] لأن ما تشركونهم مع الله لا يعلمون شيئاً من هذا كله ، لا غَيْباً ولا شهادة ؛ لذلك لا ينفعك إنْ عبدتَه ، ولا يضرك إنْ لم تعبده .

ثم يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾

﴿قُل .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿رَّبِّ .. ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] منادى حُذِفَتْ منه أداة النداء يعني : يا رب ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [المؤمنون] يعني : من العذاب ﴿رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [المؤمنون] أي : إن قدَّرتَ أن تعذبهم في حياتي فلا تُعذِّبهم وأنا فيهم .

وهذا من رقة قلبه ﷺ ، وحين اشتد به إيذاء الكفار وعنادهم في أول الدعوة أرسل الله إليه الملائكة تعرض عليه الانتقام من قومه المكذِّبين به ، لكنه يأبى ذلك ويقول : « اللهم اهْدِ قومي فإنهم لا يعلمون»[1] ويقول : « لعلَّ الله يُخرج من أصلابهم مَنْ يقول :

(١) أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق مجاهد عن عبيد ابنُ عمير قال : إن كان نوح ليضربه قومه حتى يغمى عليه ، ثم يفيق فيقول : اهد قومي فإنهم لا يعلمون . وقال شقيق : قال عبد الله : لقد رأيت النبي ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يحكي نبياً من الأنبياء ، وهو يقول : اللهم اهدَ قومي فإنهم لا يعلمون . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٤٨١/٣ ] . وانظر كتاب الزهد لأحمد بن حنبل (٢٧٨ ، ٢٨٠) .

لا إله إلا الله ».

كما أن موقفه يوم فتح مكة واضح ومعروف ؛ ذلك لأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين .

لكن ، هل قال الرسول ودعا بهذا الدعاء لأنه يعتقد أن الله يجعله معهم حين ينزل بهم العذاب ؟ نقول : لا ؛ لأنه لم يقُلْ هذه الجملة من نفسه ، إنما أمره الله بها ، ولم يكُنْ رسول الله ليعتقد هذا الاعتقاد ، إذن : المسألة وَحْي من الله لا بُدَّ أن يُبلِّغه ، وأن يقولها كما قالها الله ؛ لأن مدلولها رحمة به في ألاَّ يرى مَنْ يعذب ، أو من باب قوله تعالى :

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً .. (٢٥)﴾ [الأنفال]

وهذا الدعاء الذي دعا به رسول الله يدفع عنه أيَّ خاطر يطرأ عليه ، ويطمئنه أن هذا الأمر لن يحدث .

وقوله : ﴿إِمَّا تُرِيَنِّي .. (٩٣)﴾ [المؤمنون] عبارة عن ( إنْ ) و ( مَا ) وهما يدلان على معنى الشرطية والزمنية ، فكأنه قال : قُلْ ساعةَ أن ينزل بهم العذاب : ربِّ لا تجعلني في القوم الظالمين .

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه ( ٣٢٣١ ) ، وكذا مسلم في صحيحه ( ١٧٩٥ ) كتاب الجهاد من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال فلم يُجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال فسلم عليَّ ثم قال : يا محمد فقال : ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فقال النبي ﷺ : بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يُشرك به شيئاً .

﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

أى : أننا قادرون على أن نُريك شيئاً مما وعدناهم به من العذاب ، لكنه ليس عذابَ الاستئصال ؛ لأن الله تعالى أكرم أمتك ـ حتى الكافر منها ـ بأن عافاها من هذا العذاب ، لأنه يأتى على الكافرين فلا يُبقِى منهم أحداً ، ويمنع أن يكون من ذريتهم مؤمن بالله . فهَبْ أن عذاب الاستئصال نزل بهم فى بدر مثلاً ، أكُنَّا نرى المؤمنين منهم ومن ذرياتهم بعد بدر ؟

إذن : لا يكون عذاب الاستئصال إلا إذا علم الله تعالى أنه لا فائدة منهم ، ولا حتى من ذريتهم من بعدهم ، كما حدث مع قوم نوح ، ألاَ ترى نوحاً عليه السلام يقول عنهم : ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [نوح]

ولا يمكن أن يقول نوح هذا الكلام ، أو يحكم على قومه هذا الحكم إلا بوحْىٍ من الله ؛ لأنه لا يستطيع أن يحكم على هذه القضية الكونية التى لا يعلمها إلا المكوِّن الأعلى سبحانه ، فنحن نرى عُتَاة الكفر ورؤوس الضلال ، ثم يؤمنون بعد ذلك كله ويبلُون فى الإسلام بلاءً حسَناً .

وانظر إلى عكرمة وخالد وعمرو بن العاص ، وكم تألَّم المؤمنون وحَزِنوا لأنهم أفلتوا من القتل ، لكن لله تعالى تدبير آخر ، وكأنه يدخرهم لخدمة الإسلام وحماية الدعوة .

فعكرمة بن أبى جهل يُظهر شجاعة نادرة فى موقعة اليرموك حتى يُطعَن طعنةَ الموت ، ويستند إلى عمر ويقول وهو يجود بروحه فى سبيل الله : أهذه ميتة تُرضِى عنى الله ورسوله ؟ هذا فى يوم

الخندمة[1] الذى قال فيه الشاعر[2] :

إنَّك لَوْ شَاهَدت يَوْمَ الخنْدَمـه
إذْ فَرَّ صَفْوانُ وفَرَّ عكْرِمَه
ولحقتْنَا بالسُّيوف المَسْلمه
يَفْلقْنَ كُلَّ سَاعد وجُمْجُمَه
ضَرْبَاً فَلاَ تُسْمَعُ إلاَّ غَمْغَمَه
لَهُمْ نَهيتٌ[3] حَوْلَهُ وحَمْحَمَه
لَمْ تنْطِقى باللَّوْمِ أدْنى كِلمَه[4]

أما عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد كان من أمرهما ما نعرف جميعاً .

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾﴾

﴿ادفَعْ .. ﴿٩٦﴾﴾ [المؤمنون] تدل على المدافعة يعنى : أمامك خصم

---

(١) قال ابن الأثير : هو جبل معروف عند مكة . قال ابن بَرِّى : كانت به وقعة يوم فتح مكة ، ومنه يوم الخندمة ، وكان لقيهم خالد بن الوليد ، فهزم المشركين وقتلهم . [ لسان العرب ـ مادة : خندم ] .

(٢) جاء فى لسان العرب : أن هذا الرجز نسبه ابن السيد البطليوسى فى المثلث للراعش الهذلى ، وذكر ابن برى أنه حماس بن قيس بن خالد الكنانى . وقيل : إن هذا الرجز لهريم ابن الحطيم .

(٣) النهيت : الصياح . وقيل : هو الصوت من الصدر عند المشقة . [ لسان العرب ـ مادة : نهت ] .

(٤) أورد ابن منظور هذه الأبيات فى [ لسان العرب ـ مادة : خندم ] من قول الراعش الهذلى لامرأته وكانت لامته على انهزامه فقال هذه الأبيات . وكان قد قال قبل ذلك :

إنْ يُقبلُوا اليَوْمَ فَمَا بى علَّهْ
هَذَا سلاحٌ كَامِلٌ وَ آلَهْ
وذُو غِرارَيْنِ سَرِيعُ السَّلَّهْ

يهاجمك ، يريد أن يؤذيك ، وعليك أن تدفعه عنك ، لكن دَفْع بالتى هى أحسن أى : بالطريقة أو الحال التى هى أحسن ، فإنْ أخذك بالشدة فقابلْه باللين ، فهذه هى الطريقة التى تجمع الناس على دعوتك وتؤلِّفهم من حولك .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩) ﴾ [آل عمران]

فإنْ أردتَ أن تعطفهم نحوك فادفع بالتى هى أحسن ، ومن ذلك الموقف الذى حدث من رسول الله يوم الفتح ، يوم أنْ مكّنه ربه من رقاب أعدائه ، ووقف أمامهم يقول : يا معشر قريش ، ما تظنون أنِّى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابْنُ أخ كريم ، قال :« اذهبوا فأنتم الطلقاء »[1] .

ونلحظ أنهم كلموه بما يستميل قلبه ويعطفه نحوهم ، وذكّروه بأواصر القرابة والرحم ، وحدَّثوه بما يُحنِّن قلبه ، ولقّنوه ما ينتفعون هم به : أخ كريم وابن أخ كريم ، ولم يقولوا مثلاً : أنت قائد منتصر تستطيع أن تفعل بنا ما تشاء .

وفعلاً كان من هؤلاء ومن ذرياتهم نصراء للإسلام وأعوان لدعوة رسول الله .

وقصة فضالة[2] الذى كان يبغض رسول الله ، حتى قال قبل الفتح : والله ما أحد أبغض إلىَّ من محمد ، وقد زاد غيظه من رسول

---

(١) قال ابن إسحاق : حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » [ راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤١٢/٤ ] .

(٢) هو : فضالة بن عمير بن الملوح الليثى ( الإصابة ت ٦٩٨٨ ) .

الله حينما رآه يدخل مكة ويُحطِّم الأصنام ، فأراد أنْ يشقَّ الصفوف إليه ليقتله ، وبعدها قال : « فو الله ، ما وضعتُ يدى عليه حتى كان أحب خَلْق الله إليَّ »[1] .

لكن ماذا ندفع ؟ ندفع ( السيئة ) . ونلحظ هنا أن ربنا - تبارك وتعالى - يدعونا أن ندفع السيئة بالتى هى أحسن ، لا بالحسن ؛ لأن السيئة يقابلها الحسنة ، إنما ربك يريد أن يرتقى بك فى هذا المجال ، فيقول لك : ادفع السيئة بالأحسن .

وفى موضع آخر يعطينا ثمرة هذا التصرُّف الإيمانى : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ولو تأملتَ معنى هذه الآية لوجدتَ أن المجازاة من الله ، وليست ممَّنْ عاملْتَه هذه المعاملة ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ كَأَنَّهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت] ولم يقل : يصبح لك ولياً حميماً .

ذلك لأنك حين تدفع بالتى هى أحسن يخجل منك صاحبك ، ويندم على إساءته لك ، ويحاول أنْ يُعوِّضك عنها فيما بعد ، وألاَّ يعود إلى مثلها مرة أخرى ، لكنه مع كل هذا لا يُسمَّى ولياً حميماً ، إنما هو ولى وحميم ؛ لأنه كان سبباً فى أنْ يأخذك ربك إلى جانبه ، ويتولاك ويدافع عنك .

لذلك لما شتم أحدهم الحسن البصرى وسبَّه فى أحد المجالس ، وكان فى وقت رُطَب البلح أرسل الحسن إليه طبقاً من الرُّطَب وقال

---

(١) ذكر ابن عبد البر فى كتاب الدرر فى السير له أن النبى ﷺ مر به يوم الفتح وهو عازم على الفتك به فقال له : ما كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لا شيء كنت أذكر الله تعالى . فضحك رسول الله ﷺ وقال : أستغفر الله لك . ثم وضع يده على صدره . قال : فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما أجد على ظهر الأرض أحب إلىَّ منه . ذكره ابن حجر العسقلانى فى الإصابة ( ترجمة ٦٩٨٨ ) .

لخادمه : اذهب به إلى فلان وقُلْ له : لم يجد سيدى أثمن من هذا يهديه إليك ، وقد بلغه أنك أهديت إليه حسناتك بالأمس ، وهى بلا شك أعظم من هديتى تلك(١) .

إذن : من الغباء أن نتناول الآخرين بالهَمْز واللمز والطعن والغيبة ؛ فإنك بهذا الفعل كأنك أهديتَ لعدوك حسناتك ، وأعطيتَ أعظم ما تملك لأبغض الناس إليك .

ألاَ ترى موقف الأب حين يقسو على ولده ، فيستسلم له الولد ويخضع ، أو يظلمه أخوه فيتحمل ظُلْمه ولا يقابله بالمثل ، ساعتها يحنو الأب على ولده ، ويزداد عطفاً عليه ، ويحرص على ترضيته ، كذلك يعامل الحق - تبارك وتعالى - العباد فيما بينهم من معاملات - ولله المثل الأعلى . لذلك قلنا : لو علم الظالم ما أعده الله للمظلوم من الجزاء لَضنَّ عليه بالظلم ؛ لأنه سيظلمه من ناحية ، ويُرضيه الله من ناحية أخرى .

ويقال : إنه كان عند أحد الملوك رجل يُنفِّس فيه الملك عن نفسه ، فإنْ غضب استدعى هذا الرجل وراح يشتم فيه ويسبُّه أمام الناس حتى يهدأ ، فإذا أراد أن ينصرف الرجل أخذه على انفراد وأعطاه كيساً من المال ، وفى أحد الأيام احتاج هذا الرجل إلى مال ليقضى أمراً عنده ، فحاول أنْ يتمحَّك ليصل إلى الملك ، ثم قال له : ألستَ فى حاجة لأنْ تشتمنى اليوم ؟

فمسألتنا بهذا الشكل ، إذن : ما عليك إلا أنْ تدفع بالتى هى

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالى (٣/١٥٤) أن رجلاً قال للحسن : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغنى أنك أهديت إلىَّ من حسناتك ، فأردت أن أكافئك عليها فاعذرنى فإنى لا أقدر أن أكافئك على التمام .

أحسن ، فإنْ صادفتَ من صاحبك مودة وصفاءً ، وإلا فجزاءُ الله لك أوسع ، وعطاؤه أعظم ، وما أجمل قول الشاعر[1] حين عبَّر عن هذا المعنى :

يا مَنْ تُضَايِقه الفِعَال مِنَ التى ومِنَ الذىِ

ادْفَعْ فديْتُكَ بالتى حَتَّى تَرَى فإذَا الذى

يعنى : إن أردتَ الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ؛ فاعمل بالتى هى أحسن .

ثم يقول سبحانه : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) ﴾[المؤمنون] معناه : أنت يا محمد تأخذ بحقك من هؤلاء إذا كنا نحن لا نعرف ما يفعلونه بك ، لكن الحال أننا نعرفه جيداً ونحصيه عليهم ، وقد أعددنا لهم الجزاء المناسب ، فدَعْ هذه المسألة لنا ولا تشغل نفسك بها .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يُنزِّه ذات رسوله ﷺ من انفعالات الغضب ، وألاّ ينشغل حتى بمجرد الانفعال ؛ لأنه حين يتعرّض لك شخص بسيئة تريد أن تجمع نفسك لترد عليه ، وخصوصاً إذا كان هذا الرد مخالفاً لطبْعك الحسنْ وخُلُقك الجميل ، فكأنه يكلفك شيئاً فوق طاقتك .

فالله تعالى يريد أن يرحم نبيه وأن يريحه : دَعْكَ منهم ، وفوِّض أمرهم إلينا ، فنحن أعلم بما يصفون أى : بما يكذبون فى حقك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) ﴾

لماذا جاءتْ الاستعاذة من همزات الشياطين بعد هذه المسألة ؟ قالوا : لأن الشيطان يريد أن يتدخل ، ويُظهر لك أنه معك ، وأنه

(١) الشيخ رحمه الله وعفا عنه .

يَغَار عليك ، فيحرضك عليهم ويُغريك بهم ، ويدفعك إلى الانتقام منهم والتسلُّط عليهم .

وهمزات : جمع هَمْزة ، وهى النزْغة أو النخسة يثير بها الشيطان الإنسان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾

يعنى : إنْ دخل عليك الشيطان بهَمْزه ووسوسته فقل : أعوذ بالله من همزات الشياطين ، بل وأزيد من ذلك الزم جانب الحَيْطة معه ، فقُلْ : أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور ، وإن لم يهمزوا لى ، فأنا لا أريدهم فى مَحْضرى ، ولا أريد أن أجالسهم .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) ﴾

ذلك لمجرد أن تحضره سكرات الموت ويُوقن أنه ميِّت تتكشف له الحقائق ويرى ما لا نراه نحن ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

فيتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر ، لماذا ؟ لأنه رأى الحقيقة التى كان ينكرها ويُكذِّب بها ، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يروْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن ، كُلٌّ حَسْب حاله وخاتمته .

وأذكر حين مات أبى ، وكان على صدرى ساعتها أنه قال لى : يا أمين - وهذا اسمى فى بلدى - كيف تبنى كل هذه القصور ولا تخبرنى بها ؟

والجنود الذين صاحوا فى المعركة : هُبِّى يا رياح الجنة . لا بُدَّ

أنهم رأوها وشمُّوا رائحتها ، وإلا ما الذى جعلهم يتلهَّفون للموت ، ويشتاقون للشهادة إلا أنهم يرون حالاً ينتظرهم أفضل مما هم فيه ...

ومن هؤلاء الصحابى الجليل الذى حدَّثه رسول الله ﷺ عن أجر الشهداء عند الله ، وكان فى يده تمرات أو فى فمه يمضغها ، فقال : يا رسول الله ، أليس بينى وبين الجنة إلا أن أدخل هذه المعركة فأُقتل فى سبيل الله ؟ قال : نعم ، فألقى التمرة من فمه ومضى إلى المعركة[1] .

كأنه استكثر أن يقعد عن طلب الجنة مدة مَضْغ هذه التمرات . فإلى هذه الدرجة بلغ يقينُ هؤلاء الرجال فى الله وفى رسول الله .

ونلحظ فى هذه الآية : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ .. (٩٩)﴾ [المؤمنون] هكذا بصيغة المفرد ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩)﴾ [المؤمنون] جاء بالجمع على سبيل التعظيم ، ولم يقل : ربِّ ارجعنى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

فهنا الحق - تبارك وتعالى - يُعظِّم ذاته ، لكن هذا يُعظِّم الله الآن ، وهو فى حال الاحتضار ، وقد كان كافراً به ، وهو فى سَعَة الدنيا وبحبوحة العيش .

أو : أنه كرر الطلب : أرجعنى أرجعنى أرجعنى ، فجمعها الله تعالى . أو : أنه استغاث بالله فقال : ربِّ ثم خاطب الملائكة : ارجعون إلى الدنيا .

لكن ، لماذا الرجوع ؟

---

(١) وذلك أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ يوم أحد فقال له : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : فى الجنة . فألقى تمرات فى يده ، ثم قاتل حتى قُتل . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٤٦) ومسلم (١٨٩٩) فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله .

﴿ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾

أى : أننى تركتُ كثيراً من أعمال الخير ، فلعلِّى إنْ رجعتُ بعد أنْ عاينتُ الحقيقة أستدرك ما فاتنى من الصالحات ، أو لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركتُ ، لأننى ضننْتُ بمالى وبمجهودى وفَضْلى على الناس ، وكنزْتُ المال الكثير ، وتركتُه خلفى ثم أُحاسب أنا عليه ، فإنْ عُدت قدمته وأنفقته فيما يدخر لى ليوم القيامة .

ثم تأتى الإجابة : ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى : قوله : ارجعون لعلِّى أعمل صالحاً فيما تركت ، إنها مجرد كلمة لا واقع لها ، كلمة يقولها وقت الضيق والشدة ، فالله تعالى لن يرجعهم ، ولو أرجعهم ما فعلوا ؛ لذلك نفاها بقوله ( كلا ) التى ترد على قضايا تريد إثباتها ، ويريد الله تعالى نفيها كما ورد فى سورة الفجر :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فيرد الحق سبحانه : ( كلا ) لا أنت صادق ولا هو ، فليس المال والغنَى وكثرة العَرَض دليل كرامة ، ولا الفقر دليل إهانة ، فكلتا القضيتين خطأ ، بدليل أنك إذا أعطاك الله المال ، ثم لا تؤدى فيه حَقَّ الله وحَقَّ العباد ، ولا يعينك على أداء ما فُرِض عليك صار المال وبالاً عليك وإهانة لا كرامة . ما جدوى المال إنْ دخلتَ فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) ﴾ [الفجر] ؟ ساعتها سيكون مالك حُجَّة عليك .

كذلك الحال مع مَنْ يظن أن الفقر إهانة ، فإنْ سلب الله منك المال الذي يُطغيك فقد أكرمك ، وإنْ كنت لا تدرى بهذا الإكرام .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون] أى : كيف يتمنونَ الرجوع وبينهم وبينه برزَخ يمنعهم العودة إلى الدنيا ؛ لذلك تُسمَّى الفترة بين الحياة الدنيا والآخرة بالحياة البرزخية ، فليست من الدنيا ، وليست من الآخرة .

وفي موضع آخر يُصوِّر الحق سبحانه هذا الموقف بقوله : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام] أى : لو رددناهم من الآخرة لعادوا لما كانوا عليه من معصية الله ، وإنْ كانت هذه قضية عقلية ففى واقعهم ما يثبت صدْق هذه القضية ، واقرأ فيهم قول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] فأخذ نعمة الله وتقلَّب فيها ، ثم تنصَّل من طاعة الله .

ويقول تعالى فى هذا المعنى أيضاً : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [يونس]

إذن : المسألة اضطرارات ، كلما اضطروا دَعَوا الله ولجئوا إليه ، وتوسَّلوا ، فخذوا من واقع حياتهم ما يدل على صدْق حكمى عليهم لو عادوا من الآخرة .

والبرزخ : هو الحاجز بين شيئين ، وهذا الحاجز يأخذ قوته من صاحب بنائه ، فإنْ كان هذا الحاجز من صناعته ـ سبحانه وتعالى ـ فلن ينفذ منه أحد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿مَرَجَ(١) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن] وما داما يلتقيان ، فما فائدة البرزخ هنا ؟

قالوا : نعم يلتقيان ، ولا يبغى أحدهما على الآخر ؛ لأن المسألة ليست سَدّاً أو بناءً هندسياً ، إنما برزخ خاصٌ لا يقدر عليه إلا طلاقة القدرة الإلهية التى خرقتْ النواميس ، فجعلتْ الماءَ السائلَ جبلاً ، بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فصار كل فِرْق كالطود العظيم ، طلاقة القدرة التى فجرت الحجر عيوناً .

إذن : المسألة ليست ( ميكانيكا ) كما يظن البعض . والبرزخ بين الماء المالح والماء العَذْب آية من آيات الله شاخصة أمامنا ، يمكننا جميعاً أنْ نتأكد من صحة هذه الظاهرة .

لكن هذا البرزخ من أمامهم ، فلماذا قال تعالى : ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون]

قالوا : لأن اللفظ الواحد يُطلق فى اللغة وله معَانٍ عدَّة واللفظ واحد ؛ لذلك يُسمُّونه المشترك ، فمثلاً كلمة عَيْنٌ تطلَق على العين الباصرة ، وعلى عين الماء ، وعلى الجاسوس ، وتُقال للذهب وللفضة ، وللرجل البارز فى قومه ، والسياق هو الذى يُحدِّد المعنى المراد ؛ لذلك على السامع أن تكون عنده يقظة ليردَّ اللفظ إلى المعنى المناسب لسياقه .

وكذلك كلمة ( النجم ) فتعنى الكوكب فى السماء ، وتعنى كذلك مَا لا ساقَ له من النبات ، وهو العُشْب الذى ترعاه البهائم ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) مرج البحرين . أى : أرسلهما أو أطلقهما يجريان وهما يلتقيان عند مصبِّ النهر . [ القاموس القويم ٢/٢٢١] .

أرَاعى النجْمَ فى سَيْرى إليكُمُ     ويرعَاهُ منَ البَيْدا جوَادِىَ

فكلمة ( وراء ) تُطلَق ويُراد بها معانٍ عدة ، قد تكون متقابلة يُعيِّنها السياق ، فتأتى وراء بمعنى ( بَعْد ) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ ﴾ [هود] وتأتى بمعنى ( غَيْر ) كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

وتأتى بمعنى ( أمام ) كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الكهف] فالملك كان أمامهم ينتظر كل سفينة قادمة . وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

فقوله تعالى : ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : من أمامهم .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

الصُّور : البُوق الذى ينفخ فيه إسرافيل ، والمراد هنا النفخة الثانية للبعث .

والأنساب : جمع نَسَب ، وهو الالتقاء فى أصل مباشر ، كالتقاء الابن بالأب ، أو الأب بالابن ، أو التقاء بواسطة كالعمومة والخؤولة . والنسب هو أول لُحمة فى الكون تربط بين الناس فى مصالح مشتركة ، وهو الالتقاء الضرورى الذى يوجد لكل الناس ، فقد لا يكون لك أصدقاء ولا أصحاب ولا زملاء عمل ، لكن لا بُدَّ أن يكون لك نَسَب وقرابة وأهل .